مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(رومية ١٣:١١-١٤؛ ١٤:١-٤)

يا إخوةُ إنَّ خلاصَنا الآنَ أقربُ ممَّا كان حين آمنَّا* قد تناهى الليلُ واقتربَ النهارُ فلندَعْ عنَّا أعمالَ الظُلمةِ ونلبَسْ أسلِحَةَ النور* لنَسلُكَنَّ سلوكاً لائقاً كما في النهار لا بالقُصوفِ والسُكرِ ولا بالمضاجعِ والعَهر ولا بالخِصامِ والحَسد* بل البسوا الربَّ يسوعَ المسيحِ ولا تهتمُّوا بأجسادِكم لقَضاءِ شَهواتِها* مَن كانَ ضعيفاً في الإيمانِ فاتَّخِذوهُ بغيرِ مباحثةٍ في الآراءِ* مِنَ الناسِ مَن يعتقِدُ أنَّ لهُ أن يأكُلَ كُلَّ شيءٍ. أمَّا الضَّعيفُ فيأكُلُ بُقولاً* فلا يَزدَرِ الذي يأكُلُ من لا يأكُلُ ولا يدِن الذي لا يأكُلُ مَن يأكُلُ فإنَّ اللهَ قدِ اتَّخذهُ* مَن أنتَ يا مَن تدينُ عبداً أجنبيًّا. إنَّهُ لِمولاهُ يثبُتُ أو يَسقُطُ. لكنَّهُ سيُثبَّتُ لأنَّ اللهَ قادِرٌ على أن يُثبِّتَهُ.

إن غفرتم للناس زلّاتهم

«إن الرب جابلي أخذ تراباً من الأرض، وبنفخته المحيية منحني نفساً وأحياني، وأكرمني وأقامني في الأرض رئيساً على جميع المنظورات، عائشاً كالملائكة، فالشيطان الغاش استعمل الحية آلة فخدعني بالأكل وفصلني عن مجد الله، وسلّمني بالأميال السفلية إلى الأرض. لكن بما أنك سيد الكل ومتحنّن استدعني ثانياً» (من صلاة المساء لأحد الغفران).

بهذا الموقف الوجداني الواعي يدخل المؤمن في هذا اليوم صحراء جهاده، واضعاً نصب عينيه قيامة السيد الظافرة ومنها قيامته الشخصية (رو ٦: ٥). مَن يقرأ هذا الموقف بدقة يرى فيه توبة جريئة، لا تندّماً سلبياً، توبة فيها قراءة واقعية لما آلت إليه حالة الإنسان بالسقوط، ورجاء واثق بتحنن الآب الغفور الذي لا يشاء موت الخاطئ «بل أن يرجع الشرير من طريقه فيحيا» (حز ١١:٣٣)، تماماً كموقف الإبن الشاطر الذي لما وعى مأساته عقد العزم وسار إلى أبيه عائداً. أما القراءة الإنجيلية، واليوم مدخل الصوم ويوم المغفرة والإستغفار، ففيها – وبالواقعية نفسها أيضاً – قواعد عملية لإتمام الرحلة بأمان وبلوغ القيامة.

في مطلع الكلام المبارك يضع السيد صلة شرطية لا لبس فيها لنوال المغفرة من الله، وهي «إن غفرتم للناس زلّاتهم». الصفح عن خطايا الآخرين هو المفتاح لاستجابة الله للصلاة بشكل عام، ولالتماس المغفرة تحديداً. ذلك أن الله الذي يشتهي خلاص الكل ويغدق العطاء بلا حساب لا يسمع لقلب منغلق على الآخر، وفاقد الشيء لا يلتمسه. وفي المعنى الأعمق للكلمات أن الإنسان مدعو إلى اعتماد الغفران مسلكاً دائماً في حياته، وصولاً إلى أن يصبح راحماً غافراً بالطبع دونما جهد أو عناء. عندئذ فقط يمكنه التجرؤ على التماس الصفح من أبيه السماوي، وأبوه يعطيه ويجزل له العطاء. أكثر من ذلك فهو يصبح في قلب رحمة الله إذ يكون قد ترمم وجه من وجوه صورة الله فيه. يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «ليس

العدد ٢٠١٠/٧

الأحد ١٤ شباط

أحد مرفع الجبن

تذكار أبينا البار أفكسنديوس

اللحن الثالث

إنجيل السَحَر الثالث

الإنجيل

(متى ٦:١٤-٢١)

قال الربُّ إن غفَرتُم للناس زلاَّتِهم يغفِرْ لكم أبوكم السماوي أيضاً* وإن لم تغفِروا للناسِ زلاَّتِهم فأبوكم أيضاً لا يغفِرُ لكم زلاَّتِكم* ومتى صُمتم فلا تكونوا مُعبّسين كالمرائين. فإنَّهم يُنكّرون وجوهَهم ليظهروا للناس صائمين. الحقَّ أقولُ لكم إنَّهم قد أخذوا أجْرَهم* أمَّا أنتَ فإذا صُمتَ فادهَنْ رأسَكَ واغسِلْ وجْهَك لئلاَّ تظهرَ للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخِفْية. وأبوك الذي يرى في الخِفْيةِ يُجازيكَ علانيةً* لا تكْنِزوا لكم كُنوزاً على الأرض حيث يُفسِدُ السوسُ والآكِلَةُ ويَنْقُبُ السارقون ويسرِقون* لكن اكنِزوا لكم كنوزاً في السماءِ حيث لا يُفسِدُ سوسٌ ولا آكِلةٌ ولا يَنْقُبُ السارقون ولا يسرقون* لأنَّهُ حيث تكون كُنوزُكم هناك تكونُ قلوبُكم.

تأمل

... الصوم أخمد أجيج النار، الصوم سدّ أفواه الأسود (عب ١١:٣٣). الصوم يرفع الصلاة إلى فقط بالنعمة وحدها بل أيضاً بهذه الأعمال (الصفح والغفران) نمسي نحن أولاداً لله. ما من شيء يجعلنا نشبه الله مثل استعدادنا الدائم لترك ما لنا على الناس والصفح عمن أثموا إلينا، وذلك وفقاً لما علَّمنا الله عندما قال عن نفسه إنه «يشرق شمسه على الأشرار والصالحين» (متى ٥: ٤٥). حتى الصوم وهو أداة التنقية بامتياز، على ما علّمتنا إياه الكنيسة، فلا يستقيم ولا يؤتي ثماره إلا متى كان القلب قد تصفى بالغفران من أي حقد أو ضغينة. إذ ذاك فقط يمسي القلب خاشعاً متواضعاً، فلا يرذله الله متى التمس رحمته.

نعود إلى القراءة الإنجيلية. في كلامه عن الصوم يضيء السيد على عيب كان يشوب صوم اليهود آنذاك، وهو فخ من فخاخ الشرير ما زال قائماً. فقد كان اليهود يصومون يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع، وهذان اليومان كانا يومي السوق في أورشليم. هناك كان المراؤون يظهرون بين الناس بثياب غير مرتبة وشعر غير منسّق، علّه يبان للناس صيامهم فينالون منهم مجداً وتكريماً. أي أن التُّقى والنسك كانا للناس لا لله. قول يسوع هنا معناه أن الغاية من الصوم هي حصراً تنقية القلب، مركز الكيان، وأنقياء القلوب هم الذين يعاينون الله. عدا ذلك يصبح الصيام شكلياً بلا روح، بل يصبح تعباً يلد خطيئة بدلاً من أن يكون جهاداً للتنقي منها.

دهن الرأس بالطيب يشير إلى الفرح، وغسل الوجه يشير إلى النقاوة. هذا يعني أنه على الإنسان المجاهد أن يفرح داخلياً بجهاده، وهذا يحصل فقط متى أيقن المؤمن أن جهاده هو في حد ذاته انتصار، والفرح فيه راسخ لأنه فرح بالمسيح. مَن يحزن لتخلّيه عن مبهجات العالم يكون ما زال عالقاً بعد في العالم، وروحه لم تنطلق بعد كالطير نحو المسيح. بعد اقتناء الفرح الداخلي يأتي غسل الوجه إزالة لكل ما يعوق عين البصيرة عن معاينة «مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة، فنتغيّر إلى تلك الصورة عينها»، كما يقول القديس بولس في رسالته الثانية إلى الكورنثيين (٣: ١٨).

بعدما تناول أصول الصلاة والإستغفار والجهاد في الصوم، أراد الرب يسوع بكلامه المبارك تبيان الغاية من هذه الركائز الثلاث، ألا وهي رفع القلب المنقّى إلى السماء ليعاين الله وينعم بالعيش في أحضانه. ولكنه يحذر سامعيه من كنوز الأرض التي يُفني التعلّق بها ثمار الجهاد الروحي. والمقصود بكنوز الأرض ليس الماديات وحسب، بل كل ما هو من الأرض ويزول بزوالها. هذا يشمل أيضاً استعراض الفضائل سعياً في إثر المديح، ومحاباة الوجوه، والإنزلاق في مهالك الحكمة المتداولة في العالم والتي لا تمت إلى حكمة الله بصلة. مَن يعمل للعالم ينال أجره من العالم، وليس له بالتالي عند الله شيء. مأساة الإنسان عموماً أنه يشتهي ما لله وما للعالم في آن.

نشير هنا إلى أنه وبرغم الحب العميق الذي أعلنه ويعلنه يسوع وكنيسته للعالم، تبقى للمسيحية تحفظاتها في ما يختص بما آل إليه العالم وحياة الإنسان فيه في هذه الأيام. عالمنا في تعليم الكنيسة هو «عالم ساقط» مبتعد بملء إرادته عن الحياة في الله خالقه. لذا فنحن

السماء وكأنه يعطيها أجنحة تخوّلها الطيران إلى فوق. الصوم يعمّر البيوت، يُعنى بالصحة كأم. هو مربٍّ للشباب ومزيّن للمتقدمين في السن. مرافق حسن للمسافرين وضمانة لكل من يساكنه. لا يشك الرجل بامرأته عندما يراها تصوم، كما لا تغار المرأة من رجلها عندما تراه يصوم بانتظام.

من الذي قُضي على ثروته من جراء الصوم؟... لا ينقص شيء منها عن طريقه. هو يريح الطباخين قليلاً من العمل. تقتصر المائدة على الطعام القليل. لقد أعطي السبت لليهود «لكي يستريح فيه ثورك وحمارك وكذلك عبدك» (خر ٢٣:١٢). ليكن الصوم فرصة استراحة سنوية للخدام من أتعابهم المتواصلة. يستريح الطباخ قليلاً من عمله. يأخذ مدبّر الموائد مأذونية. لا يعود يسكب خمراً في كأسك، وتتوقف صناعة الحلويات المختلفة. ليسترح بيتك أيضاً من أتعابه المتنوعة، من الدخان، من رائحة الشوي، من كل من يسرع هنا وهناك من أجل خدمة البطن وكأنه السيد الذي لا يكفيه شيء. كان من عادة جامعي الضرائب أن يريحوا أحياناً دافعي الضرائب. فليعط بطنك استراحةً ما للفم، ويلجأ

نفهم الجهاد الروحي، والصوم من أوضح تعابيره، على قاعدة «أطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه»، أي على تحديد واضح لسلّم الأولويات وحصر الإستثمار في المشاريع ذات المردود الأكيد، بدلاً من تبديد ما أوتينا من مواهب وطاقات هنا وهناك. المسيحي المؤمن يحصر اهتمامه في ملكوت الله، أي أنه إن صام يصوم لله وأمام الله وحده لأنه لا يجاهد إلاّ حبًّا بالله وإكراماً لوجهه القدوس.

زمن الصوم

اليوم ندخل زمن الصوم الذي يتميّز بمناخ خاص، يتم التعبير عنه بصلوات تتمحور حول موضوع العودة إلى الذات لفحصها ومعرفة أمراضها في محاولة لشفائها. هذا الزمن لا يطال النفس مباشرة بل إنّه يحركها عبر تحريك العقل والقلب والجسد.

نحن إذاً ندخل في اختبار يطال الكيان البشري كلّه، نفساً وعقلاً، قلباً وجسداً، لأن الإنسان كائن متكامل لا انفصال فيه بين الجسد والروح، ولا تمايز للروح عن الجسد وكأنها أرفع منه شأناً. إننا بصدد عملية تحويلية جذرية لكياننا البشري بكليته. هي أشبه بشفاء للكيان من أمراض مميتة واتجاه قوي نحو الحياة، نحو الحياة الأبدية.

مناخ هذا الزمن مماثل لمناخ الزمان في العهد القديم. هو زمن نتذكر فيه السقطة الأولى والطرد من الفردوس وعهد الله بأن لا يترك شعبه فريسة للموت. هو زمن نبكي فيه الفردوس المفقود. هو زمن نستعيد فيه كلام الرب لإبراهيم: «اترك أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك. وأنا أجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظّم اسمك وتكون بركة» (تك ١٢: ٢-٣). هو زمن نترك فيه عبادة أوثاننا الجديدة ونكنز لأنفسنا كنوزاً حيث لا يُفسد السوس والآكلة (أنظر متى ٦: ٢٠).

هو زمن محجّة نحو السماء عبر صحراء التيه. هو ذلك الإنتظار الممتلئ رجاء. هو استباق الخلاص واستعجاله. هو زمن الحزن البهيّ (السعيد). زمن الحزن لأننا نبكي فيه أيامنا العتيقة التي بددناها في الزنى والخلاعة بعيدين عن بيت الآب، وزمن سعيد لأن الآب في ختامه سيذبح لنا العجل المسمّن ويلبسنا الحلّة الأولى.

هو زمن اختبار. اختبار علاقتنا بالله نترجمها محبة للقريب وسلاماً وهدوءاً وطمأنينة للنفس. في هذا الزمن نحن مدعوون أن نفهم المعنى الحقيقي للخطيئة كإساءة لمحبة الله، فنضبط اللسان ونسكّن الغضب ونكسر شوكة الشهوة والكذب والعجب والرياء.

أما انقطاعنا عن الطعام فليس لتعذيب الجسد. سوف نفهم انقطاعنا عن الطعام بصورة أفضل إن أحسنّا فهم صلوات هذه الفترة البهية. فحين نقول مثلاً: «إن آدم لما تناول أكلة أخرجه الإسراف من الفردوس وأما نحن فقد اتخذنا الصيام، فأهّلنا للتوبة أيها المحب البشر» (الأودية الرابعة من إثنين الأسبوع الأول للصوم). صومنا هو حركة عكسية لفعل آدم. بسبب الأكل هو طُرد من الفردوس ونحن بالصوم نستعيد هذا الفردوس المفقود. هو أسرف وها نحن نتقشف. هو أحب ذاته ونحن سنحب الله أكثر من ذواتنا.

هل الصوم قصاص؟ يقول المرنم (في سَحَر الإثنين من الأسبوع الأول): «هلّم أيها الشعوب لنتقبّل اليوم نعمة الصيام وزمان التوبة

محبة منا إلى السكينة. هو الذي لا ينفك يطالب بالمآكل وإن أعطي اليوم نسي غداً ما كان قد تناوله البارحة. عندما يمتلئ يتكلم عن فلسفة الإمساك، وعندما يفرغ ينسى ما كان قد علّمه في وقت شبعه.

الصوم مناسبة للإبتهاج. كما أن العطش يجعل الشرب مستحباً، كذلك الصوم المسبق يجعل المائدة مستحبة والطعام أشهى، لأنك إن أردت أن تجعل مائدتك لذيذة وشهية اعتمد الصوم الذي يخلق مثل هذا التبدّل. أما أنت، الذي تتسلّط عليك شهوة التمتع بالأطعمة، فإنك تفقد بهذه الطريقة ملذاتها وتقضي على المتعة واللذة من جراء شهوتك وهوى محبة اللذة. لا شيء يُشتهى ويتمتع به المرء بصورة متواصلة ولا يزدري به في النهاية. كل شيء نادر مستحق التمتع به. هكذا شاء الخالق عن طريق التبدل في العيش أن يديم التمتع بما وهبنا من نِعَم. ألا ترى الشمس مستحبة أكثر بعد انتهاء الليل؟ والاستيقاظ بعد النوم، والصحة بعد المرض، والمائدة أيضاً بعد الصوم، أكان ذلك للأغنياء الذين تفيض عندهم المآكل أم للفقراء القانعين بالطعام القليل؟

القديس باسيليوس الكبير

كهبة من الله، طالبين أن ننال الرحمة». إن الإنقطاع عن الطعام بحد ذاته لا يفيد، إلا أن الله سمح بوافر تحننه أن يتقبّله منا كذبيحة مرضيّة يغدق علينا في مقابلها عظيم رحمته.

الصورة هنا شديدة البهاء. كيف يكون الصيام نعمة؟ فليتذكر كل منا خطأً جسيماً ارتكبه بحق إنسان ما. ألا يكون همّنا الأول كيف نتجنب ردّة فعله السلبية؟ ألا نحاول إيجاد حلّ لائق لتجنب عواقب محاسبته لنا عن الضرر الذي لحق به دون أن يسيء ذلك إلى كرامتنا أو مصالحنا؟ ومتى وجدنا السبيل إلى ذلك ينتهي كل شيء. هكذا أوجد الله لنا السبيل لإصلاح العلاقة معه عبر الصيام ليمحو إساءتنا إليه. إن الخالق بدل أن يحاسبنا، (وهو لو فعل سنصير كالهباء الذي تذرّيه الريح) يتنازل عن حقه ويتقبل من خليقته عملاً بسيطاً (رمزياً وشبه مجاني) ليعيد الجبلة الأولى إلى ما كانت عليه من بهاء لحظة الخلق. ولذلك نكرّر في صلوات الصوم: «وليكن بهاء الرب إلهنا علينا، وأعمال أيدينا فسهّل علينا وعمل أيدينا سهّل». ونضيف: «يا رب لقد ابتعدنا عن الفردوس قبلاً بسبب الأكل من العود. وأما بعود صليبك وآلامك فأدخلتنا إليه أيضاً يا إلهي ومخلّصي فَحَصِّنّا به لنتمِّم الصيام بنقاء لائق ونسجد لقيامتك الإلهية والفصح الخلاصي بشفاعة والدتك» (اكسابستلاري أحد مرفع الجبن).

والصوم في الكنيسة مقترن بالصلاة. من دون الصلاة لا قيمة للصوم. ليس فقط لأن الصلاة تشدد المؤمن وتعطي معنى لصيامه، بل لأن الصوم من دون صلاة هو عذاب مجاني للجسد لا قيمة له في عيني الرب ولا فائدة منه. الله لا يريد إماتة أجسادنا. الله يريد أن نكون بكليتنا في عشرة حميمة معه. هذا هو قصد الله الخلاصي، وإذا لم نفهمه لن نفهم طبيعة علاقتنا مع الله. لن نكون معه على انسجام.

عندما نتحدث عن الصلاة المرافقة للصوم، ندعوكم بإلحاح لفهم معنى كل كلمة صلاة تقولونها أو تسمعونها. عليكم أن تتبنّوا كل كلمة، أن تقولوا في أنفسكم: هذه الكلمة أنا أرفعها إلى الله لأنها تنطبق على حالتي أنا شخصياً. هكذا ندخل في حديث حميم مع الله. لن نشعر عندها بطول وقت الصلاة.

«لقد انفتح ميدان الفضائل فلجوا أيها المؤثرون الجهاد متمنطقين بجهاد الصوم الحسن لأن المجاهدين حتماً يُكلّلون. فلنلبس الصليب، ونبارز العدوّ ونحاربه ممتلكين الإيمان كسور لا ينصدع، والصلاة كدرع والصدقة كخوذة وعوض السيف الصيام الباتر من القلب كل رذيلة. فالذي يصنع هكذا فإنه يقتبل الإكليل الحقيقي من المسيح ملك الكل يوم الدينونة الرهيب» (من أحد مرفع اللحم).

صومنا جهاد نلتزم به فلتشهد على جهادنا السماء والأرض قائلين: «اسمعي يا سماء فأتكلم وأصغي أيتها الأرض لصوتِ تائبٍ إلى الله ومسبّح إياه» (ارمس الأودية الثالثة من إثنين الأسبوع الأول).

هو الصوم الكبير مقبل علينا، نتمنّاه لكم مباركاً ومقدِّساً لحياتكم نفساً وجسداً مكلّلاً إياكم بأكاليل النصر والظفر على كل خطيئة، فتلبسون حلة المجد بقيامة المسيح.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb